

الرأي الصريح

في مقالة « الفصحح العامي والدامي الفصحح »

قرأت في الجزء العاشر من مجلة المقتبس مقالا بعنوان « الفصحح العامي والعامي الفصحح » لحضرة الفاضل نعم افندي مكرزل صاحب جريدة الهدى التي تصدر في نيويورك . قرأته بلهف شديد لاني اميل بسائق من طبعي الى المباحث اللغوية وتقد كلام البلغاء وتمييز القول الفصحح من الفث الركيك . ليكون لي من ذلك مادة استعين بها . وقاعدة احتذي مثالا : اقدمت على تصفح هذه المقالة وانا معجب باوائك النفر من اخواننا العرب المسيحيين الذين هجروا وطنهم لكنهم لم يهجروا لغتهم . ولم يذلوا في غربتها . بل رفعوا شأنها وحفظوا من كرامتها . بما نشروه من الجرائد . ودبجوه من الرسائل والكتابات المفيدة . وحضرة نعم افندي من هؤلاء الافاضل الذين خدموا لغتنا العربية بما ينشره في جريدته (الهدى) التي لم اك من قرائها وانما كنت اقرأ احيانا نبذا منها في صحفنا العربية اما مقال (الفصحح العامي) الذي قرأته اخيراً في مجلة المقتبس فقد رأيت اقل قدراً من ان يعزى الى صاحب جريدة (الهدى) . ولا حظت فيه ركافة في التعبير . وضعفاً في الاسلوب . ومواضع للنقد والمناقشة بلغت من الكثرة مبلغاً جعلتني استبعد ان تكون فرطت من قلم كاتب المقالة وانما هو الدهول غلب على مصحح اصولها في ادارة المقتبس فجاءت هكذا مشوهة المحامس . طامسة المعالم . وان لم يكن الامر كما ذكرت فيكون الوسط الاعجمي الذي يعيش فيه اخواننا المهاجرون اثرت رطانته في صراحة لغتهم . وبدلت عجمته من عروبة السنهم . والا فكيف نقرأ مقالاً لواحد من اشهر كتابهم في نقد لغة الكتاب وتعداد اغلاطهم في اساليبهم وتراكيب كلامهم . وارشادهم الى الطريقة المثلى في التعبير والتجوير . ثم بعد هذا كله نسمع في المقال نفسه من الركافة والنموض والسلطة ما لا يتفق وجوده في عشرات من المقالات . الا يكون هذا من الزرائب ؟

لو اقتصر الكاتب على الموضوع الاهم من مقالته : وهو سرد الكلمات العامية التي يحسبها انكشاف دخيلة وهي عربية فصيحة ثم حذف على استعمالها لكان اجاد وافاد . لكنه ذهب

في افانين القول كل مذهب وتعرض لنصح المنشئين والزراية عليهم وارشادهم الى الانشاء العالي فسقط في هذا التعرض من عل واتى بأشد مما نهاهم عنه . وحذرهم منه . ولا مهم عليه .

ولا يكون من الانصاف بعد هذا ان لاندكر نموذجاً مما نواخذ الكاتب فيه . ثم نلقت انظار القاري اليه :

اول ما يؤخذ عليه قوله في العنوان (الفصيح العامي والعامي الفصيح) فانه تكرر لاحسن فيه . ولا داعي اليه : ان كلمتي (العامي) و (الفصيح) في هذا التركيب وقعا صفة لمحذوف كأنه يقول (اللفظ الفصيح في اصله العامي في استعماله) ولما عكس وضع الكلمتين كان المعنى (اللفظ العامي في استعماله الفصيح في اصله) وهو نفس المعنى المستفاد من التركيب الاول فكان ذكره زيادة مستغنى عنها . وليس تغليب الكلمتين هنا كما هو في قولهم كلام المملوك مملوك الكلام) فان هذا القول له معنى خاص لا يستفاد الا بمجموع التركيبين وقد حمل احدهما على الآخر . اي ان لكلام المملوك ميزة على سائر كلام الناس كما ان للملوك ميزة على الناس انفسهم . فالعنى المستفاد من الموضوع والمحمول حسن في ذاته . وزاده حسناً قلب التركيب وعكس الالفاظ حتى استحق بذلك ان يعد في جملة انواع البدع .

ثم بعد هذا العنوان اراد الكاتب ان يبين مبلغ حاجتنا الى معجم لغوي يجري في تحليل الالفاظ مجرى معاجم اللغات الاوربية فانفتح الكلام بقوله : (ليس في اللغة العربية معجم واحد يستحق ان يدعى نعمة الرائد بوفرة الشواهد وكثرة الفوائد وضبط الشوارد ولا في غير اللفظة ما يبدل على ازالة الابهام الخ) فقوله (ولا في غير اللفظة) غامض في اتصاله بما قبله مبهم في تعيين المراد منه

ثم قال (قترى اكثر الكتاب يقرصون فيما لا يعذرون عليه ويتوهمون ان البيان في الدليل والحوشي والبلاغة في العقيم والحوشي وان كل من حرف عرف)

الكاتب الذي خط قلمه هذه العبارة هو الذي قال بعد سطرين (قد تهتأ ثوب اللغة حتى كاد يسقط من تقطعه نثرى كل من تحيف بيانه عجمة وجدل عن ادعاء ومكابرة يمتحف الفصيح ويستأب البليغ ويحرك خشاشه غضباً على كل من ملك من اللغة عناناً وضبط لها بياناً ويكون لا يدري من اي الدهداء هو الخ) اذا سألت معاجم اللغة عن معنى ماورد في هذه الجملة قد تجد ان معنى (تهتأ) تقطع وبلى . لكلك اذا سألت نفسك عما فحسته منها تجدها لا تحير جواباً . ولا تملك خطاباً . واذا الخفت عليها بالسؤال تقول لك يلوح

لي ان الكاتب الغاضل يريد ان يوضح ادعياء اللغة والانشاء الذين يتنقصون غيرهم .
وهممون عن عيوب انفسهم .

اذا قلنا ان المصحح سها عن تصحيح كلمتين او ثلاث فهل يغفل ان يكون ركباً سهواً
في كل جمل المقالة فخرها وتلعب بها . ودونك هذه الجملة الاخرى : « وقليل من البحث
يرجعها — اي الكلمات العامية — الى اصلها . ويقسم من اللسان متأده . على ماوقع من
شحو خمسين عاماً الى اليوم اذ توكل المجتهدون اثر بلغاء العربية الاقدمين وتخطوا بحث
والتنقيب واقبلوا على التدقيق والتحقيق وقد ترجع مثابرتهم اللغة الى روتها الاول بعد
خمسين عاماً تأقي » الجملة تجموعها ركيكة ظاهر عليها التكلف . ولعله يريد بقوله « توكل »
المجتهدون اثر البلغاء — تتبعوا . ولكن هذا الفعل يتعدى باللام . ويكون معناه التعهد
تارة . والتعرض مرة اخرى : فيقال فلان يتوكل لآل فلان اذا تعهدهم بالصلات
والعطايا . وفلان يتوكل للامير اي يتعرض له حتى ياقاه . وقوله « مثابرتهم اللغة » صوابه
على اللغة لان المثابرة بمعنى المواظبة . وها بتعديان يعلى يقال : ثابرت على الامر وواظبت
عليه . على ان المعبود في مثل ما يريد الكاتب ان يقال المثابرة على خدمة اللغة او دراسة
اللغة لا المثابرة على اللغة . ثم انفي الكاتب باللائمة على المدارس الاجنبية التي توجب
على تلاميذها التخاطب بلغاتها وقال « وبذلك يتسرب العقوق وشي من البله الى قلوب
وعقول هؤلاء الاولاد المساكين » قد نجد لتسرب العقوق الى العقول معنى لكننا لا نجد
ابداً لتسرب البله الى عقولهم معنى ولا شبه معنى بسبب التخاطب باللغات الاجنبية
ثم قال الكاتب « ان البلاء ليس في الادعاء وحده بل في اختزال كل منا برأيه .
والتصرع والتصاغر للاجنبي والتمزق الظاهر تكلفه والتفوق البادي تحيفه مع الوطني
وريج التخاذل حتى في اللغة تجف كل ذروة باقية في جرفها وتمتثل كل ذرة كسنا نعرفها
قبل عصفا . والله في تدابير شؤن »

ليس من تعاجيب الدهر ان يقع مثل هذا الكلام في مقال نشر لي كوث نبواً
يهدي الكتاب الى مواقع النصاحة والبلاغة وحسن التعبير . ويتجنب بهم من القى الركافة
والسلطة والفحوض ؟

واغرب من ذلك ان حضرة الكاتب اراد ان يذكر عيوباً للغة فعده منها عيباً بعده
قوم مزينة من مزاي اللغة العربية ويحسبه آخرون امراً طيباً لا تخلو منه لغة من
اللغات . فقد قال :

(ومن عيوب العربية ايراد جموع لامفرد لها وافعال لامصدر ولا ماضي لاحدها .
 فهل نقبل فلسفة اللغة شيئاً من هذا ؟ وهل يعقل ان واضعي اللغة بنوا كلاماً من غير
 اجزاء ؟ اننا لاناسب هذا الخلل الا الى مدعي المحافظة على سلامة اللغة او يكونون
 يحافظون على قديم عقيم لا يسم به عقل سليم)

لانرى علاقة بين فلسفة اللغة وبين ان يكون في العربية جموع لامفرد لها : عدد
 اهل اللغة طائفة من الجموع لم يعرف لها مفرد : مثل محاسن ومذاكير وتجاليد . فذهب
 بعضهم الى انها لامفرد لها . وحقق آخرون ان لها مفردات اهملت في الاستعمال . وربما
 كان المراد من قول الاولين (لامفرد لها) اي في الاستعمال لا الوضع فلا يكون بين
 الفريقين خلاف .

ولابد من داع دعا اهل اللغة الى افعال تلك المفردات . وقد قالوا ان جمع (لب)
 (الباب) لكنهم لما رأوا الجمع ارشق في اللفظ واخف على السمع اكثر مما من استعمال
 الجمع واهمال مفردة وهكذا كان دأب القرآن الكريم في استعمال الجمع دون المفرد .
 ومثل هذا يقال في الفعل الذي لم يستعمل مصدره او لم يستعمل ماضيه .
 فليست المسألة اذن من مسائل الفلسفة . وانما هي من مسائل تخيير ارشق كلمات
 اللغة للتخاطب والتفاهم .

وفلسفة اللغة لا يصلح ان يكون اتمق فيها مدعاة الاجادة في المنظوم والمنثور .
 كما كرره الكاتب في مقاله : فان تلك الفلسفة علم نظري اكثر مما هو عملي . وله ثمة
 خاصة به غير تجويد الانشاء وتجويد الكلام الذي يتوقف على استظهار كثير من كلام
 البلغاء واطالة النظر في اساليبهم والفتن لمناحي كلامهم . هذا هو الطريق لتحصيل
 ملكة الانشاء . اما فلسفة اللغة فلا يكون من اثرها ذلك بل ربما كان للاشتغال بها اسوأ
 الاثر في ضعف تلك الملكة والعجز عن تحدي الكلام البليغ .

وقد غلا حضرة الكاتب في الرفع من شأن فلسفة اللغة والمخط من قدر زملائه الكتاب
 الذين لم ينالوا حظاً من تلك الفلسفة حتى قال :

(نحن ابعد ابنا اللغات الحية عن وضع الكلام في مواضعه واقامته سيفه مواضعه
 لاننا لاندريس فلسفة اللغة بل لان اكثر اصحاب الجرائد والمجلات والمترجمين والمؤلفين
 من غير الاكفاء الا بالتجسس والارعاء . او ان اللغة امست واسطة للكسب والارتزاق
 حتى بالبعث والتفاني)

فقد جعل حضرته علة نقصير اخوانه في وضع الكلام مواضع جهلهم فلسفة
اللغة . فهل هذا حق ؟

ومما انتقده الكاتب قولهم (دام بقاءه) فقال (ان طلب الدوام . حماقة وحرام)
وانهم في هذا القول قد طلبوا (البقاء في دار الفناء وخلود من اعدت لهم الخلود) .
وهذا ذهول من حضرة الكاتب : لان اصل الدوام في اللغة السكون ومنه (ماء دائم) .
ويستعمل ايضاً في طول البقاء وامتداد المدة . ومنه (ديمة) للمطر الذي يستمر تهطله
بضعة ايام . ومنه ايضاً استعمال (مادام) : فاذا قلت اجتمع بك مادامت في هذه البلدة
كان المعنى مدة بقاءك فيها . فقول الكاتب دام بقاءه في الدماء بمثابة اطال الله
بقاءه . نعم قد يراد بالدوام الخلود كما في القرآن الكريم (اكلها دائم وظلها) والضمير
يرجع الى الجنة كما ان الخلود نفسه يراد به طول المدة احياناً كما ورد في القرآن الكريم
عن اناس لا يكونون كافرين ومع هذا خبر عنهم بأنهم يدخلون النار خالدين فيها ففسروا
الخلود بانه طول المكث لا المكث الابدي .

ومما انتقده ايضا وسهي عليه فيه قولهم (همي الدمع من عيونها) قال : « كم من
عين لها » يشير الى ان صوابه ان يقال « من عينيها » . لكن اهل اللغة يجوزون
استعمال صيغة المثني في الجمع والجمع في المثني بل يجوزون احياناً استعمال المفرد في الجمع
والجمع في المفرد . ومثلوا لكل ذلك . وذكروا له اسباباً معتبرة عند اصحاب اللغة .
ففي القرآن الكريم « فقد صفت قلوبكم » . كان الظاهر ان يقال : « قلبا كما » لان
المخاطبين اثنان . ولها قلوبان لا قلوب . لكنهم كرهوا اجتماع علامتي ثنية في لفظ
واحد . اما مثل « همي الدمع من عيونها » فيأولونه بارادة المبالغة وان المرأة كانت
كأنها تبكي « بيون كثيرة » لفرط ما اسبغته من الدموع التريزة . واكبر ما يؤخذ به
ان الكاتب انه عاب اخوانه الصحافيين في امر نكاد تري مثله ماثلاً امام عينيك وتلموسا
تحت يديك في كل جملة من اجل مقاله . مثال ذلك انه آخذهم في قولهم « ارسلت له »
وصوابه « ارسلت اليه » . وانتقاده صحيح لكن الرصاف لا يستحقون عليه كل هذا
الازراء والتوبيخ فقد قال في هذا الصدد

(اصعب ما في اللغة على الدارسين انفسهم احسان استعمال حروف الجر وكل مدقق
يتناول الجرائد والمجلات الا العدد القليل منهم يضحك من كثرة السقطات التي

لا يعذر منشيء عليها وفي مقدرة شراهم معجم او في رأسه قوة تميز بين هذا وذاك
المعنى الخ

ولكن هل تحسب حضرة الكاتب في منجاة من كل ما تنقص به زملاءه . وهل تراه
احسن استعمال حروف الجر ووضعها مواضعها اللانقطة بها ؟

قال في هجر اولئك الزملاء المساكين : (قترى اكثر انكتاب بتخوصون فيما لا يعذرون
عليه) اخطأ الكاتب في استعمال الحرفين - « في » و « على » في جملة واحدة قصيرة .
يقال تخوص عليه اي كذب واقتري . ولا يقال تخوص فيه . ويقال عذره في فعله .
ولا يقال عذره علي فعله : فكان الواجب على الكاتب ان يقول (بتخوصون على مالا
يعذرون فيه) . على ان هذه الجملة بربطها لامعنى لها او لامعنى لاسعمال التخوص
في هذا المقام

ومما قاله في صدد التهم بالكتاب والمثئين : « ولماذا لا تكتب وتكتاب بفهم وسهولة
وبساطة وسلامة » حقا ان حضرتهم اشفق على القراء من اذى ما ينالهم من كد الذهن اذا
اذا قرأوا كثيراً مما يخطئه الكاتبون لكنه لم يشفق هو عليهم في مقاله هذا بل ضربهم
بثالثة الانافي مذ قال في خاتمة المقال . وانا لاعدوه على اسماع قراء المقتبس وان طال :
« ثم ما هي فائدة الحركات في اللغة اذا كنا لا نريد الا نصرف عن جعل الواو
« الثقيلة الد » ؟ في اولي وعمر وحبوة وصلوة بحجة التمييز وازالة اللبس وهلا يوجد
غير هذه الكلمات في العربية بحاجة الى الضبط ؟ ثم ما هي فائدة الحركات اذا كنا نكتب
« اله » ولا يجوز لنا ان نكتب مؤنثه إلهة ؟ ثم كيف يعقل ان تكون جموع لا مفرد
لها مثل شلثة ومخاطر ومحاسن وشماطيط وما جمعه الثعالي وغيره وهل كان كل ما لا يكون
سمعه الجامع لا يكون وضعه الواضع جرياً على القياس ؟ وكيف يمكن ان تكون المطاوعة
في فعل ولا تكون في آخر مثاء تماماً ؟ وكيف تكون صيغة افضل التفضيل في ما لا فعل
له كقولهم هو اقلط منه ؟ او كيف يكون مضارع لاماني له كقولهم لم يذر ؟ او مزيد
لا مجرد له . والامثلة متوفرة . وثمت منابت العربية بعد ان كانت مستحسنة . وتفاصح
اكل من لم يكن فصيحاً ولن يكون متفصيحاً . فوجب ان يرجع الناس الى فقه اللغة
الذي لا اعني به كتاب ابني منصور الكمال بل فلسفة اللغة حتى لا يرسل كل من اغتر بمقدرته
الكلام على عواهنه ويحسب ان من جمع كلمة الى كلمة كان شاعراً أو ناثراً أو اماناً وثقة يجب الاقلال
من التردد المبهم الذي لا يزيد الا اعتشكالا والاعتدال في تعليم القواعد بحسب كل

مذهب والتوثيق في معاني البليغ من المنظوم والمنثور والاستكثار من حفظ الجيد ولا سيما ما يدعى السهل الممتنع ويجب ان تكون مجلاتنا وبرائتنا المدارس الحقيقية قرفض كل كتابة تليق بالمعاني الضيالة وبه المعرور والشعور الى ما يفسد الذوق ويدعو الى الغرء ومن فقه اللغة ان نستطيع على ما يبدل لنا صعب اللفظ عند الترجمة والاستشهاد اي ان يكون لنا ما نستطيع معه نقل الكلمة الانجمية من فكرة وعلم الى معناها الاصلي . وقد كان للعرب روم واثام فليكن لنا زيادة على مثالها والله ولي التوفيق اهـ

هذا ما نؤخذ اوصاف به الكاتب الفاضل . ولم تقدم عليه الا عندما آتينا منه في مثاله شرا في اللغة العربية . ورغبة في ان تكون مصونة من عيب العاشين بها . وكيد العاملين على امانتها : فقد اربح حفظه الله في غير ما موضع من مقاله المذكور عن غيرة شديدة . وعزيمة في اصلاح اللغة اكيدة . من ذلك قوله : « ولو ان الحكومة تقيم الائمة لأفادة الكلام واللفظ أكانت تحدم البلاد والعباد ما زالت مدارسنا توجب على التلاميذ القاطب بلغة اجنبية ولا توجب عليهم القاطب — ولو لساعة — بفصح لغتهم كان القاطب بفصح العربية عار وفصح اللغات غار » فلا جرم ان هذه الغيرة من حضرة منقبة بحمد عليها ومأثرة يجب علينا ان نقفدي به فيها

مارايلس الشام : المغربي

مُسَرِّعُ الْخَلَا وَالْاجْتِمَاعِ

الآداب العربية

وفقى احمد بك زكي بعد عتابة عشرين سنة الى جمع طائفة من مخطوطات السلف في علوم مختلفة تعرض على حكومة مصر ان تساعد على تمثيلها بالطبع فعينت لذلك الف جنيه في ميزانية هذه السنة ووقفت المال الاحتمالي الموجود في دار الكتب المصرية لعابح ما يجب طباعه واليك المجموعة النفيسة التي جمعها صديقنا الملم وشيخنا بطبع الكتائبين الاولين منها قبل كل شيء وهي بشرى بل وشران الامة العربية بل ولكل من تهبه مدينة العرب الراقية :

موسوعات

نهاية الارب في فنون الادب لشهاب الدين الديرى